أزمات الشعوب النفسية

سمينا عصرنا هذا بأسماء كثيرة تنطبق عليه .

سميناه عصر النور لأنه العصر الذى انتشرت فيه العلوم التجريبية ، وسميناه عصر الكهرباء لأنه عصر القوة الكهربائية ، وسميناه عصر الطيران ، وعصر المرأة وعصر الدهماء ، ونسميه اليوم عصر الذرة وعصر الرادار ولا نتعدى الواقع فى هذه التسمية .

ولكننا إذا سميناه عصر « النفسيات » لم نخطئ لذلك سببًا كأقوى ما تكون أسباب الأسماء . لأن البحث فى « علم النفس » لم ينتشر فى عصر من العصور كما انتشر فى هذا العصر الحديث .

طبقنا علم النفس على الفرد فى جميع حالاته : على الفرد الصحيح وعلى الفرد المريض : على الفرد العظيم وعلى الفرد الحقير ؛ على الفرد وهو طفل ؛ وعلى الفرد وهو رجل ، وعلى الفرد فى جميع المعارض والأعمال .

ثم طبقنا علم النفس على الجماعات ، من أمم وطوائف وطبقات ، وتوسعنا فى بيان الفروق بين النفس الجماعية والنفس

الفردية . فاتفقت الأقوال على أن الظواهر النفسية تختلف بين الفرد والجماعة ، أو تختلف بين الفرد على حدة والفرد فى الجمهور والزحام .

لكننا نريد أن نلمس فى هذا الحديث جوانب الشبه بين الفرد والجماعة فى حالة واحدة ، هى حالة الأزمات النفسية . فإن التقريب والتبسيط فى هذه الأمور يفيدان فائدتها الكبرى ، ويدنوان بنا من حصر العلة وتوحيد ملاحظتها ، وكلما نجحنا فى توحيد الأسباب نجحنا فى الوصول إلى السبب الصحيح .

هناك ظواهر كثيرة تتشابه فيها « الأزمات النفسية » بين الفرد والجماعة كل التشابه ، ونستطيع أن نفهمها هنا وهناك على نحو واحد ، ونلم فى هذا الحديث ببعض الأمثلة على تلك المشابهات .

من تلك الظواهر أن « الأزمات النفسية » ترجع فى الجماعة ، كما ترجع فى الفرد ، إلى الحيرة ، ولا ترجع إلى سوء الحال وحده .

فمهما اشتد سوء الحال فهو لا يفضى بالجماعات ولا بالأفراد إلى أزمة نفسية ، ما لم تصحبه حيرة تمتنع فيها سبيل الهداية .

هناك مثلا رجل فقير ، جائع ، عار ، محروم ، ولكنه قانع صابر ، أو شاعر بأنه مستحق للفاقة والحرمان ، فلا أزمة هناك .

متى تبدأ الأزمة النفسية ؟

تبدأ حين يحار بين الصبر والقناعة ، وبين طلب الرزق من طريق لا يستقر عليه : من طريق السرقة أو المخاطرة أو التفريط فى الشرف والكرامة أو الخروج على المألوف والعادة .

فتوجد الأزمة النفسية مع الحيرة ، ولا يكفى لإيجادها مجرد سوء الحال ، ولهذا يثور رجل يكسب عشرين قرشا فى اليوم ولا يثور رجل يكسب عشرة قروش . لأن الفرق بينهما فرق فى الحيرة وليس فى العسر أو الحرمان .

أو لهذا يشعر الناس فى الجيل الحاضر بالأزمات النفسية ، ولم يشعر الناس قبل جيل أو جيلين بأمثال هذه الأزمات لأنهم يضيقون اليوم ويحارون وكانوا بالأمس يضيقون ويصبرون .

كذلك الأمم فى أزماتها النفسية : تشعر بالأزمة حين ترتاب وتحار ، وليس من الضرورى أن تشعر بها حين تشتد بها الحال ، أو تضيق بها أسباب المعاش .

تشعر الأمم بالأزمات النفسية حين تتردد بين نظام ونظام ، وبين خطة وخطة ، وبين عقيدة وعقيدة ، ولا تشعر بالأزمات النفسية وهى ترى أمامها طريقا واحدا لا تعدوه .

تشعر بالأزمات النفسية حين تتردد بين الديمقراطية والسلطة الفردية ، أو بين الحرية والدكتاتورية ، أو بين زعامة العلية وزعامة الدهماء .

ولكنها لا تشعر بالأزمات النفسية إذا استطاعت أن تختار طريقها أو عرفت كيف تختاره ، ولو تفرقت بها الطرق أحزابًا أحزابًا أو جماعات جماعات .

هذه ظاهرة لا تختلف فيها أزمات الفرد وأزمات الجماعة وهى ظاهرة « الحيرة » فى الحالتين .

وظاهرة أخرى أن الأزمة النفسية تتراخى فى الفرد والجماعة بالتعبير وإزالة الأسباب .

فالرجل الذى يشكو ، ويعلم ما يشكوه ، ويستطيع أن يعبر عن شكواه ، لا يقال إنه فى أزمة نفسية .

والأمة التى تملك حرية التعبير تعالج الأزمات النفسية بالتفريج والتنفيس .

ولكن التعبير فى الحالتين علاج مخفف موقوت ، ولا يحسم الداء كل الحسم إلا العلاج الصحيح ، وهو العلاج الذى يقتلع الأسباب من جذورها ويغنى الأمة عن طلب التفريج والتنفيس .

ومن المشابهات بين أزمات الفرد وأزمات الجماعة أن الظواهر النفسية فيها - كثيرا ما تنبعث من أسباب جسدية مجهولة أو معلومة .

فالرجل يشكو من كسل الكبد مثلاً فيسوء ظنه بالحياة ويسوء ظنه بالصداقة والأصدقاء .

والأمة تشكو من سوء التغذية فتقبل على الخمور وتتبع

الطريق العوجاء فى الشهوات والنزوات ، وتشيع فيها فلسفة القعود والخمول ، ويصدف فيها الناس عن عظائم الهمم ومغامرات المجد والطموح .

* * *

ومن المشابهات بين أزمات الفرد والجماعة أن نتائجها لا تناسب أسبابها فى جميع الحالات .

فهذا الإنسان الفرد تصيبه إهانة فتدفعه إلى الإجرام ، وقد تصيب هذه الإهانة إنسانا غيره ، فتدفع به إلى صومعة العبادة .

وهذه الأمة تنهزم فى الحرب فتقبل على التجنيد وتضاعف عدتها من السلاح ، وقد تنهزم أمة أخرى فتكثر فيها الطرق الدينية والدعوات الروحية ، أو تروج فيها الآداب المنكوسة والفنون المريضة وما يقترن بهذه وتلك من مساوئ الأخلاق .

وقد تنهزم أمة فتثور على حكومتها طلبًا للإصلاح ، وتنهزم أمة أخرى فتنكسر نفوسها وتخلد إلى السكينة وتقبل الظلم الذى كانت تثور عليه .

* * *

ويتشابه الفرد والجماعة فى علاج الأزمات بالطب الصحيح أو علاجها بالسحر والشعوذة والرقى والتعاويذ .

فهذا الرجل تضيق نفسه فيوقد شمعة على ضريح ، ويعترى رجلا آخر مثل هذا الضيق فيذهب إلى معمل الكيمياء لتحليل

ما يحتاج إلى التحليل من إفرازات جسمه ، ويهتدى بذلك إلى ذوى الاختصاص من الأطباء .

وكذلك الأمم فى شعورها بالضيق وفى طلبها للعلاج : هذه أمة تلوذ بالدجالين الذين يضللونها باسم الدين أو باسم السياسة أو باسم البر والإحسان ، وهذه أمة تلوذ بالمختصين فى تحليل الأدواء الاجتماعية ، ومنها ما يرجع إلى المرض أو يرجع إلى الجهل أو يرجع إلى اختلال الوسائل المعيشية وتنظيم الأعمال والثروات ، وكان من شئون الأطباء الاجتماعيين الذين يعرفون ما يجهله المشعوذون والدجالون .

* * *

هذه مشابهات متعددة بين الفرد والجماعة فى الأزمات النفسية ، وأهمها فيما رأينا أننا نضع أيدينا على علة الأزمات فى الإنسان الواحد وفى الجماعات البشرية ، وهى الحيرة وصعوبة الاتجاه فى طريق دون طريق .

هذا هو أهم شبه بين الأزمة النفسية فى الفرد والأزمة النفسية فى الجماعة . وإنما كان المهم فيه أنه يهدينا إلى التماس العلاج من طريقه القويم .

فإذا كانت الحيرة هى علة الأزمة النفسية ، فاليقين هو علاجها الوحيد ، وما هو اليقين ؟ .. هو الإيمان كيفما كان .

من كان فى أزمة نفسية فقد شفى منها حين يخرج من الحيرة

إلى العمل المطلوب ، عن اعتقاد فيه ورجاء فيما ينتهى إليه .

وقد يكون هذا الرجاء صادقًا معقولاً وقد يكون كاذبًا غير معقول . ولكن الأزمة النفسية لا تشفى بغيره كائنا ما كان نصيبه من الحق أو الباطل .

من أين تأتى الأزمة ؟

تأتى من الحيرة .

وما علاج الحيرة ؟

علاجها الذى لا شك فيه هو العلاج الذى يزيل حيرة النفوس : وهو اليقين ، أو الإيمان .

لكن المسألة ليست من السهولة ، بحيث تغنى فيها معرفة هذه الحقيقة كل الغناء . لأن معرفة الدواء لا تغنى عن تحضير عناصر الدواء .

وعناصر الإيمان هى تأثير نفسانى بليغ ، وعقيدة مقبولة لا تناقض المحسوسات .

فلا تقوم عقيدة بغير شخصية إنسانية قادرة على إيحائها ، وعاطفة حية تستجيب لدعائها ، ومبادئ روحية أو فكرية لا تناقض الجيل فيما يعلمه ، وفيما يحسه ويراه .

ولا تقوم عقيدة على بضاعة الإيهام وحده دون العمل النافع السريع .

وإن قامت هنيهة من الوقت فمصيرها إلى الزوال .

* * *

كل أزمة نفسية تعترى الشعوب تأتى من حيرة وتشفى بإيمان ، وكل إيمان يقوم على الوهم وحده مخفق فيما يدعو إليه . فلابد من التوفيق بين الإيمان ومطالب الأوان ، ولو كان الإيمان مما استقر به اليقين فى زمن قديم .